تكامل النطاقات المعرفية في سورة العصر،
نحو تأصيل الاستمداد القرآني

محمد بنتاجة
باحث في الفكر الإسلامي وفلسفة الدين، المغرب

يندرج هذا البحث ضمن أعمال المؤتمر الدولي الأول

"نحو بناء منهاج جامع لعلوم الوحي وعلوم الإنسان، الحلقة الأولى: الأسس الإبستيمولوجية"

والذي نضم يومي 15 - 14جمادى الأولى 1444هـ /الموافق لـ 10 - 09دجنبر2022م

برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة -المغرب

أَكَادِيمِيَّةُ الدِّرَاسَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالتَّرْبَوِيَّةِ

Academy of Intellectual and
Educational Studies

الآراء الواردة في البحث
هي للكاتب، ولاتعبر
بالضرورة عن الموقع
أو الأكاديمية

مقدمة

ارتبطت العلوم الإسلامية منذ عصر النبوة بالوحي، وكانت مناهج البحث عند علماء المسلمين لا تخلو من الوثاقة بالأصول الإسلامية المؤسِّسة قرآنا وسنة وإجماعا. وقد استطاعوا بما وصلوا إليه من فتوحات علمية تطويع الآفاق وإقامة صرح معرفي عمراني لا تزال البشرية إلى اليوم تغترف من معينه. كانت العلوم الإسلامية في شتى تخصصاتها انعكاسا للقيم القرآنية، كما كانت خادمة للحقيقة الشرعية، وقادرة على تنزيل مقاصد الوحي في الواقع. ومع سقوط الخلافة الإسلامية وحصول الانفصال بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية في الأمة، بدأت جذوة القوة الفكرية تخفت، فتراجعت بسبب ذلك مكانة العلوم الإسلامية في إقامة الاستخلاف الإسلامي في الأرض. ولم يكن هذا التراجع عموديا فقط؛ بل كان خاضعا لسيرورة تاريخية تدريجية تتسارع وثيرتها تارة وتتباطؤ تارة أخرى؛ كما اختلفت إيقاعات الانهيار بحسب العلوم وحاجة المجتمعات إلى كل واحد منها. وقد تجلت مظاهر هذا الإنهيار في تراجع الوعي بالتاريخ لدى علماء المسلمين وحاجة الوقت بمواكبة الأسئلة المستجدة على العقل المسلم في مختلف الأزمنة، كما ظهر فيهم تنكب عن تحصيل متطلبات النهضة العلمية وسنن التغيير الوجودية الضامنة لاستخلاف العلوم الإسلامية ونفعها في كل زمان ومكان. فأدى التفسير الظاهري للنصوص الشرعية إلى تسطيح الفهم الإسلامي للوحي ولم يعد مكانا للفهم العميق للمقاصد الشرعية المتوارية خلف الأحكام الإلهية. كما صارت المعرفة الإسلامية في العالم الإسلامي شرقا وغربا بين علوم شرعية سطحية وبين علوم تسخيرية متقادمة، تتباعد يوما عن يوم عن السقف المعرفي الزماني خصوصا في المجال التداولي العلمي الأوروبي.

وفي العالم الغربي برزت منظومة العلوم التجريبية بديلا عن المعرفة الإسلامية التاريخية المتقادمة لكن بعد مرورها بمنعطف العلمنة الشاملة ابتداء من القرن الثامن عشر (الثورة الصناعية) وانتهاء بالثورة السيبرانية ما بعد حداثية المعاصرة (القرن الحادي والعشرين). وبموازاة ذلك بدأت مناهج البحث العلمانية تستوطن العالم الإسلامي، تتقدمها مدافع الاستعمار وصلبان المبشرين؛ رافعة شعار التقدم العلمي وإصلاح صرح العلم في المستعمرات المسلمة، لكن سرعان ما تبين عجز هذه المناهج هي الأخرى عن استيعاب فسيفساء التجربة الإسلامية؛ وبالنتيجة فشلها في إحداث نقلة نوعية في الوعي الجمعي للمسلمين. وذلك راجع بالأساس إلى الاغتراب والتنافر الحاصلان بين النماذج المعرفية المنقولة وبين النماذج العلمية المأصولة التي تحمل قيم الاسلام ورؤيته الكونية الخاصة به. وكما عاشت النماذج المأصولة أزمتها فإن النماذج المنقولة لم تزل تعيش في أزمتها أيضا وبشكل أعمق وأعنف بسبب حالة الفراغ الروحي وغياب المعنى اللذان أصاباها جراء سيطرة الاتجاهات الوضعية التي ألغت الوعي القيمي

والروحي استنادا إلى فلسفة العلوم التجريبية؛ فتراجعت مقولات الوحي والغيب والإيمان لتحتل حيزا تراثيا منعزلا عن توجيه فاعلية الإنسان المعاصر. وفي الوقت نفسه، بدأت منظومة العلوم في أطراف حضارات المركز تتزعزع بنياتها هي أيضا بسبب حالة التوهان المنهاجي الذي اعتراها بين ضغط أزمة النموذج الغربي -بعد أن ارسي دعائمه في المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والتربوية لعالمنا الإسلامي- وبين الهوية المعرفية الإسلامية الحاضرة في اللاوعي الجمعي للشعوب المسلمة؛ فصار العقل المسلم المعاصر حائرا بين خيارين أحلاهما مرّ؛ إما أن يتمسك بخيار النموذج الغربي بعجَرِهِ وبجَرِهِ(طه حسين، سلامة موسى، شبلي شميل، عبد الله العروي= تيار الاستغراب) وبين الرجوع إلى التجديد الإئتماري (تجديد في الظواهر دون البواطن) الذي برز في عصر النهضة العربية مع رواد الإصلاح أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين(جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا). وبين التجديد الائتماني في المناهج والمعرفة والحياة والرؤية الكونية، (طه عبد الرحمن)؛ من خلال إعادة استنطاق الوحي واستخراج نطاقات الهداية الكامنة فيه، دون إغفال إحداث تكامل بين مقاصد الإيمان والأخلاق وبين آليات استنطاقها في العلم المأصول والمنقول معا(سيد محمد نقيب العطاس، إسماعيل الفاروقي، أنور الجندي، طه عبد الرحمن).

وقد قصدنا من هذا البحث استنطاق آيات سورة العصر، وتوجيه نطاقات الهداية فيها نحو ميدان المعرفة البشرية المعاصرة حتى تحررها من قيود الوهم والزلل اللذان رَانَا عليها ومنعاها من تحقيق وظيفتها التنويرية فتصير بالهداية العصرية (نسبة إلى سورة العصر) كأنها معرفة إسلامية جديدة ابتداء، وحتى يخرج المسلمون إلى اليقين اللازم لإقامة صرح الاستخلاف الاستئماني بمنظومات معرفية تحصل التوازن بين مقاصد الدين ومقاصد الدنيا، وتستوعب حاجة الوقت في الانفتاح على المستجدات العالمية في إطار بنية معرفية راسخة في إيمانها تستوعب المختلفات كما استوعبت المؤتلفات.

وقد دافع البحث على فرضية أن التكامل بين النطاقات المعرفية الخمس المتضمنة في سورة العصر هو المنهج الأقدر على صبغ المعرفة البشرية المعاصرة بصبغة الإسلام. ويتحقق هذا التكامل من خلال ما يضيفه كل نطاق للمعرفة الدهرية الخاسرة من آليات ومقاصد ومنافع تجعلها المعرفة الأحق بتحقيق استخلافية الإنسان في الواقع، والأجدر بكشف عمل واجب الوجود في الوجود، والقوانين المتحكمة في العالم على القدر الممكن إدراكه. وأول النطاقات التي تعرضنا إليها هو نطاق الزمن الوجودي؛ ويعمل هذا النطاق على ضبط إيقاعات المعرفة البشرية من خلال الوعي بالزمن وقوانينه في المعرفة بما هي معرفة متزمنة. والسيرورة الزمنية هي حتمية تاريخية ميتافيزيقية (إلهية قدرية لا اختيارية إنسانية) تخضع لها المعارف الإنسانية فتدخلها في مسار زمني يعيدها من جديد إلى قوتها وعنفوانها(دورة الزمن المعرفي). وكلما تعمق وعي العارف بفعل الزمن في المعرفة كلما كان أقدر على التعامل مع قوانين الحتمية الضابطة

لإيقاعاتها في الزمن الممتد. أما نطاق الإنسان العارف فهو نطاق يحدد صفات العارف بما أنه حامل للمعرفة، وفي نفس الوقت هو أحَد موضوعاتها. فلا يمكن لكل عارف أن يحمل أمانة المعرفة الإسلامية إلا في سياق شروط ذاتية حددتها سورة العصر عينها، كما لا يمكن أن يكون موضوعا لها إلا بتبني المقاصد الكلية للوحي وهو التمكين في الأرض من أجل إصلاحها وتطهيرها من الفساد وتحقيق سعادة الدنيا والآخرة، وبهذا يكون للمعرفة الإسلامية دورا خَلَاصِيًا بامتياز. ويتجلى النطاق الثالث في الإيمان بالله الواحد؛ وهو نطاق التجاوز المعرفي لكل ما هو مادي، يتكامل فيه عالم الغيب وعالم الشهادة بما يضمن للمعرفة تعددية في زوايا النظر تجاه الوجود، وشمولية أكبر في المخرجات المعرفية، ودقة في التوصيفات السننية، كما دل هذا النطاق على قيمة التوحيد كقيمة عليا وأساسية في وحدة أجزاء المعرفة وتكاملها. ويظهر نفع نطاق العمل الصالح في ربط المعرفة الإنسانية بالعمل ومطابقة الواقع بدل الاكتفاء بالتنظير دون يقين بصلاحيته للتحقق في الشهود. كما أن شرط صلاح العمل هو أيضا قيمة في المعرفة يجنِّبها الفساد الذاتي والإفساد المجالي. ثم يأتي النطاق الخامس وهو نطاق التواصي بالحق والتواصي بالصبر؛ وهما قيمتان من القيم البانية في القرآن الكريم، فالحق بما يدل عليه من إقامة العدل شرط أساسي في تمييز نموذج المعرفة الإسلامية عن غيرها، كما أن شرط قيمة الصبر شرط أساسي في تجويد مخرجات هذه المعرفة؛ التي تتطلب الصبر على العوائق الذاتية والموضوعية التي تحول دون استئناف العمل البنائي والتجديد فيه.

وفي سبيل استنطاق آيات سورة العصر معرفيا سلكنا مسلك المنهج البنيوي باعتباره منهجا كليا تتكامل وتتوحد فيه العلوم بعضها مع بعض، دون الانسياق مع الخلفيات المعرفية الضارة الكامنة من وراءه. ومن ثم فسرنا البنية الموضوعية (سورة العصر) باعتبارها نسقا جامعا لجملة من الأنساق والأنظمة والشبكات تحتاج إلى تفكيك ثم إلى إعادة صياغة وتوجيهها بما يضمن تفاعلها مع أنساق المعرفة المعاصرة المراد تركيبها من جديد وفق دلالات سورة العصر بما هي مبادئ ربانية عاصمة من قواصم الزلل في الفهم والتنزيل لنخلص فيما بعد بمعرفة إسلامية إبداعية مأصولة في المبادئ المعصومة ومنقولة في المناهج الموضوعة.

بين يدي سورة العصر

يقول القرطبي: " سورَةِ" وَالْعَصْرِ" وَهِيَ مَكِّيَّةٌ. وَقَالَ قَتَادَة مَدَنِيَّةٌ وَرَوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَهِيَ ثَلَاث آيات"[1]. لم يذكر المفسرون وعلماء القرآن -بما فيهم أبـو جعفر بن جرير الطبري(ت310هـ) في

1. القرطبي، محمد. الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط 2، 1996، القاهرة، دار الكتب المصرية، ج20، ص 178.

موسوعته التفسيرية "جامع البيان في تأويل القرآن" وأبو الحسن الواحدي (ت468هـ) في كتابه "أسباب نزول القرآن"- سببا معيّنا لنزول سورة العصر، غير ما نقله أبو الفداء ابن كثير في تفسيره عن " عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ: وَفَدَ عَلَى مسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ [لَعَنَه اللَّه] وَذَلِكَ بَعْدَ مَا بَعَثَ رَسول اللَّهِ وَقَبْلَ أَنْ يسْلِمَ عَمْرٌو، فَقَالَ لَه مسَيْلِمَة: مَاذَا أنْزِلَ عَلَى صَاحِبِكمْ فِي هَذِهِ الْمدَّةِ؟ قَالَ لَقَدْ أنْزِلَ عَلَيْهِ سورَةٌ وَجِيزَةٌ بَلِيغَةٌ. فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: " وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خسْرٍ إلا الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ " فَفَكَّرَ مسَيْلِمَة هنَيهة ثمَّ قَالَ: وَقَدْ أنْزِلَ عَلِيَّ مِثْلهَا. فَقَالَ لَه عَمْرٌو: وَمَا هوَ؟ فَقَالَ: يَا وَبْر[1] يَا وَبْر، إِنَّمَا أَنْتِ أذنَانِ وصَدْر، وَسَائِرِكِ حَفْز نَقْز. ثمَّ قَالَ: كَيْفَ تَرَى يَا عَمْرو؟ فَقَالَ لَه عَمْرٌو: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَم أَنِّي أَعْلَم أَنَّكَ تَكْذِب"[2]. وقد تنزَّلت سورة العصر في علوم القرآن الكريم منزلة عظيمة؛ لأنها اعتبرت جامعة من جوامع الهداية الإلهية للناس كافة، وهي أيضا تجل من تجليات الرحمة المهداة للعالمين. وقد نالت التقديم عن غيرها من السور منذ القديم، ففي القرن الأول " كَانَ الرَّجلَانِ مِنْ أَصْحَابِ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا الْتَقَيَا، لَمْ يَتَفَرَّقَا إِلَّا عَلَى أَنْ يَقْرَأَ أَحَدهمَا عَلَى الْآخَرِ "سورَةَ الْعَصْرِ" إلى آخِرِهَا، ثمَّ يسَلِّم أَحَدهمَا عَلَى الْآخَرِ"[3]. وامتد اهتمام المسلمين بهذه السورة بما هي عليه من الوجازة والبلاغة حتى قال الشافعي عنها: "لَوْ تَدَبَّرَ النَّاس هَذِهِ السّورَةَ، لَوَسِعَتْهمْ"[4]. والمعنى أنها سورة تَسَع الناس بكل معاني الكمال التي ركزها الله فيها، فلا تتبين أوجه هدايتها ولا يظهر فضلها إلا بالتدبر. لذلك اعتبر ابن قيم الجوزية هذه السورة: "من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره"[5]، لما اشتملت عليه من مراتب الكمال الممكن الوجود؛ التي بها " .. يكون الشخص كاملًا في نفسه، مكمِّلًا لغيره، وكماله بإصلاح قوَّتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيرَه بتعليمه إيَّاه، وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل."[6]. وهذه المراتب التي ذكرها ابن القيم هي: "أحدها: معرفة الحقّ.

---

2. والوبْر: دوَيْبَةٌ تشْبِه الْهِرَّ، أَعْظَم شَيْءٍ فِيهِ أذنَاه، وَصَدْره وَبَاقِيهِ دَمِيمٌ. فَأَرَادَ مسَيْلِمَة أَنَّ يَرَكِّبَ مِنْ هَذَا الْهَذَيَانِ مَا يعَارِض بِهِ الْقرْآنَ، فَلَمْ يَرجْ ذَلِكَ عَلَى عَابِدِ الْأَوْثَانِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ. قاله ابن كثير.
3. ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط2، 1999، مصر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ج8، ص 479.
4. صحيح، الطبراني، سليمان بن محمد. المعجم الأوسط، طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، مترجمان. ط1. 1995، دار الحرمين – القاهرة، ج5، ص 215. وقال الألباني: " قلت: وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال مسلم غير محمد بن هشام المستملي.." انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها.ط1، 1996الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، رقم: 2648، ج6، ص 309.
5. ابن كثير، مرجع سابق. ج8، ص 479.
6. ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، مراجعة: محَمَّدْ أَجْمَل الإصْلاحِي، سليمان بن عبد الله العمير. ط1. 1432ه. مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ج1، ص 153.
1. المرجع السابق.

الثانية: عمله به. الثالثة: تعليمه من لا يحسنه. الرابعة: صبره على تعلّمه، والعمل به، وتعليمه"[1]. فهي إذن: من السور الخاصة بالمعرفة الإسلامية الدالة على الحقيقة الإسلامية.

تضمنت سورة العصر النطاقات المعرفية الضرورية للوصول إلى الحقيقة الإسلامية (مقاصد الوحي الكلية). تلك الحقيقة التي تسعد الإنسانية في العاجل والآجل، لا يمكن أن تتحقق إلا في سياق تتكامل فيه هذه النطاقات مع بعضها. وبمعنى آخر: إنها تحقق مقصد الإسعاد الإنساني في مجموعها ولا تقبل التشظي بينها، لأن كل نطاق منها يضفي على المعرفة البشرية من القيمة المضافة ما يقربها إلى الكمال المعرفي الممكن الوجود. وذلك ما عبر عنه الحضور القوي لحرف العطف في طياتها (حضور حرف الواو أربع مرات في ثلاث آيات). وتتمثل هذه النطاقات المعرفية فيما يلي:

1. نطاق الزمن المعرفي.
2. نطاق الإنسان العارف.
3. نطاق الإيمان بالله/ الغيب (مطلقا كان أو نسبيا)=الاستمداد.
4. نطاق العمل الصالح = الامتداد الاستخلافي.
5. نطاق منظومة القيم الكونية (الحق والصبر).

وقبل أن نستجلي الجوانب المنهجية الكامنة في هذه النطاقات التأسيسية، لابد أن نحدد أولا مفهوم التكامل المعرفي أو ما أسميناه بتكامل النطاقات المعرفية، لأن تحديد النطاقات المعرفية لن يكون كافيا بحسب سورة العصر في تحقيق قفزة نوعية في المعرفة الإنسانية.

أولا: مفهوم تكامل النطاقات المعرفية القرآنية، وأهميتها

مفهوم النطاقات المعرفية في سورة العصر ليس ترجمة حرفية لمفهوم التكامل المعرفي، فبينهما من العموم والخصوص ما سنبينه. والنطاق لغة: من الثلاثي ن ط ق، ينطق، نطقا، ومِنْطَقا ونطاقا ونطقًا. قال أبو زيادٍ الكلابيّ: "النِّطاق: أنْ تأخذَ المرأة ثوباً، فتلبَسَه، ثمَّ تشدَّ وسطها بحبلٍ، ثمَّ ترسلَ الأعلى على الأسفل"[2].ويقال: "كتاب ناطِقٌ، أَي: بيِّنٌ على المثَل، كأنّه ينْطِق... ويقال: هوَ واسِع النِّطاق على التّشبيه ومثله اتّسَع نطاق الإسلام."[3] . أما النطاقات فهي جمع الجمع؛ وهي المجالات الواسعة ذات الحدود

2. المرجع السابق.
3. القاسم بن سلام، الغريب المصنف، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، د.ط، د.ت. المدينة المنورة. مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ج.2.ص. 433.
1. الزبيدي، مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين. دار الهداية د. ت.. ج.26.ص. 427.

المعلومة؛ يشد بعضها بعضا ويكمِّل بعضها بعضا[1]. والنطاقات القرآنية هي مجالات هدائية وحقول وظيفية تتجلى في صورة شروط أو أوصاف محددة سلفا، الغاية منها إصلاح ما أضيف إليها من موضوعات. فتكون النطاقات المعرفية القرآنية عبارة عن: مجالات نظرية حددها القرآن الكريم، منزَّلَة منْزِلَةَ الشروط والأوصاف والمقاصد الواجب توفرها في النماذج المعرفية كي تنال صبغة الإسلام. ونقصد بتكامل النطاقات المعرفية: التناسب والتوافق الحاصل بين الشروط والأوصاف في معرفة ما؛ وتميز هذه الشروط والأوصاف كل نموذج معرفي عن غيره في المنهج والمقصد والمضمون. والغاية منه إخراج نسق معرفي خاص يتأسس ويتكامل مع الرؤى الميتافيزيقية والامبريقية الكامنة وراءه. كما تتبدى أيضا رؤيته المرجعية في إنتاجاته (فكرية وصناعية)، وفي حلوله المقترحة لحل الإشكاليات المطروحة في الواقع. وتعتبر النطاقات المعرفية الخمس الواردة في سورة العصر(سيأتي تفصيلها) الأطر المرجعية القرآنية لمنظومة العلوم الإسلامية التي تشكل مع المعارف التي تنتجها أسمى أشكال التعقل المبني على تحصيل الحقائق الإسلامية. إن النطاقات الخمس السالفة الذكر[2] لا يمكن أن تؤتي أكلها إلا مجتمعة بعضها فوق بعض؛ فالمعرفة لا يمكنها أن تتقدم تلقائيا أو عبر ثورات علمية دون مبدأ التراكم التاريخي الذي تتحكم فيه السيرورة والزمن، لذلك فالوعي بتاريخ العلم جزء أساسي في الصبغة الإسلامية لنظرية المعرفة. وما فتئ القرآن الكريم يؤكد على حضور الزمن والسيرورة الوقتية كحتمية ميتافيزيقية في كل آياته. كما أن طبيعة الإنسان العارف هي أيضا أساسية في إنتاج المعرفة وتقدمها الامتدادي. كذلك الأمر بالنسبة للقيم الحاكمة للفعل المعرفي بل لجنس المعرفة ذاتها؛ فلا يمكن للمعرفة الإسلامية أن تكون إلا صالحة وفق المعايير التي حددها الوحي في منظومته المقاصدية الكلية والجزئية. أما نطاق العمل فهو نطاق الامتداد الزمكاني، الذي يتيح للمعرفة أن تخرج من عالم النظر لتحتكم إلى التفاعل المباشر مع العالم الحق بشتى مكوناته المادية والغيبية. وعندما تنتج المعرفة الإسلامية عملا ناجحا في الحياة تكون معرفة إسلامية ناجحة وعندما تنتج معرفة فاشلة تكون معرفة إسلامية فاشلة. وليس وصف الإسلامية إلا التقيد بمقاصد الإسلام وقيمه الضابطة، والاجتهاد في التنزيل المتكامل لنطاقاتها، أما نجاح المعرفة في بلوغ مقاصدها المعينة، فهذا أمر بيد الله خارج عن قدرة الإنسان؛ كما قال النبي صالح: ﴿إِنْ أُرِيد إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْت وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْت وَإِلَيْهِ أُنِيب﴾ [هود: 88].

---

2. وقد روي عن علي رضي الله عنه قريب "وذلك أنه قيل لَه: " لم لَا تخضب فَإِن رَسول الله صلى الله عليه وسلم قد خضب؟ فَقَالَ: كَانَ ذَلِك وَالْإِسلام قل، فَأَما الْآن فقد اتَّسع نطاق الْإِسلام فامرأ وَمَا اخْتَار". انظر: ابن سيده، علي، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي. ط.2. 2006، بيروت: دار الكتب العلمية. ج. 6.ص 286.

3. نطاق الزمن المعرفي. نطاق الإنسان العارف. نطاق الإيمان بالله/ الغيب مطلقا كان أو نسبيا = الاستمداد. نطاق العمل الصالح = الامتداد الاستخلافي. نطاق منظومة القيم الكونية الحق والصبر.

يتبين الفرق بين تكامل النطاقات المعرفية والتكامل المعرفي؛ في كون النطاقات المعرفية هي مجالات تأسيسية كلية يجب أن تراعيها المعرفة الإسلامية في إنتاج نماذجها الإرشادية الخاصة بها. وتشكل النطاقات حدودا ضابطة لتغوّل العقل العلمي، وفي نفس الوقت هي ضابطة لانسلاخه عن مقومات الموضوعية والفكرانية الإيجابية اللازمة لتدافعاته مع النماذج المعرفية الأخرى. أما التكامل المعرفي فهو شكل وظيفي غايته هو حسن استثمار المعارف والعلوم الاستثمار الأمثل في حدود النطاقات المعرفية التي حددتها سورة العصر الكافية الشافية. فعلى سبيل المثال؛ يقوم صرح علم الكلام الإسلامي على تكامل كل من علم الإلهيات(علم الكلام الجليل) مع علم الأخلاق (نطاق القيم)؛ مع علم اللغة(نطاق الإنسان التداولي) وعلم الطبيعة=علم الكلام الدقيق (نطاق الزمن الوجودي)؛ فهو إذن تكامل ذو طبيعة وظيفية تقنية، وتعتبر النطاقات المعرفية الخمسة مجالات اشتغاله لا يجوز للمتكلم الخروج عنها وإلا خرج علمه عن صبغة الإسلامية العاصمة من الوهم والزلل.

ثانيا: وظيفة الزمن الوجودية في المعرفة الإسلامية

ربطت سورة العصر الهداية الإلهية بمفهوم عميق في الوعي الإنساني والفلسفة الوجودية وهو الزمن/ الوقت. وقد ظهر حضور الزمن في السورة على شكل قَسَمٍ بالعصر، فقال تعالى : (والعصر). وقد جاء هذا القسم بالعصر في شكل آية مستقلة بذاتها كما هو الحال في سورة الفجر وسورة الضحى للدلالة على عظم هذا القسم وما يدل عليه من معاني العظمة، وما يترتب عنها من آثار في عاجل وآجل المكلفين بهذا الخطاب. والعصر؛ كما " قيل: أي: ورب الدهر"[1]. وفسره مقاتل بن سليمان (ت150هـ) بأنه: "عصر النهار، وهو آخر ساعة من النهار، وأيضا «العصر» سميت العصر حين تصوب الشمس للغروب وهو عصر النهار، فأقسم الله- عز وجل- بصلاة العصر"[2]؛ وروى الطبري؛ أَنَّ عَلِيًّا ﷺ قَرَأَهَا: "وَالْعَصْرِ وَنَوَائِبِ الدَّهْرِ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خسْرٍ"[3]. وأكثر التفاسير موافِقة لتأويل مقاتل. والسؤال الذي يطرح في هذا السياق: ما علاقة زوال الشمس أو الدهر بالمعرفة الإسلامية ونطاقاتها؟

إنَّ القسم بالدهر ليس مقصودا بذاته، ولا القسم بالفجر والضحى هي أيضا مقصودة، وإنما المقصود الأعمق –والله أعلم- هو الزمن في حد ذاته بما هو قوة من قوى الإحكام الإلهية لسنن الوجود ومادة الموجودات. فالزمن يهيمن على كل تفاصيل الوجود بما فيه نفسه؛ لذلك فالزمن هو مخلوق متزمن بنفسه

1. التستري، سهل، تفسير التستري. جمع: أبي بكر محمد البلدي. تح. محمد باسل عيون السود. ط1. 1423هـ. بيروت: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ص 204.
2. مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان. تح. عبد الله محمود شحاته. ط1. 1423هـ. بيروت: دار إحياء التراث. ج 4، ص 829.
3. ابن جرير، الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن. تح. أحمد محمد شاكر. ط1. 2000. بيروت. مؤسسة الرسالة. ج 24، ص 613.

بامتياز. ومعنى هذا أن القسم بالعصر هو إشارة إلى الزمن في الوجود (الزمن الوجودي)؛ ووظيفة البحث العلمي هو الاجتهاد في الكشف عن فاعليته الوجودية وتوضيح آليات اشتغاله من خلال تفكيك قوانينه الظاهرة في الأنساق القابلة للقياس في كل مجال وجودي ممكن. والمعرفة الإنسانية بما هي عليه من ارتباطات وجودية متشعبة لا تخلوا بأي شكل من الأشكال من خضوع لسلطان الزمن سواء على مستوى مناهج البحث وأدواته وأيضا على مستوى مضامين المعرفة وأيديولوجيتها. صحيح أن الوعي بالوجود قديم قدم الإنسان نفسه؛ لكننا لا نكاد نقف على دراسات وافية تفكك أفاعيل الزمن في تثوير المعارف الإنسانية وتطورها. وهذا ما سنحاول إبراز بعض ملامحه في هذا المبحث من هذه الدراسة.

انطلقنا من فرضية تزعم أنَّ " ما يدوم أكثر هو الذي يعاود بدأه بشكل أفضل". ومن أوائل من طرح هذه الفرضية المؤرخ الفرنسي غاستون رونبيل Gaston Roupnel (ت1946م) في كتابه "حدس اللحظةL’INTUITION DE L’INSTANT /"[1]. يقول رونبيل: "ما الذي يستمر، ما الذي يدوم؟ هذا وحده هو الذي يملك أسباب معاودة البدء. وهكذا إلى جانب الزمان من خلال الأشياء، هناك الزمان من خلال العقل. والحال كذلك هو على الدوام: فكل زمان حقيقي هو في جوهره متعدد الأشكال: وإن الفعل الحقيقي للزمان يتطلب غنى التطابقات، وتآلف المجهودات الإيقاعية. وإننا لن نكون كائنات مكونة بشدة وقوة تعيش راحة مضمونة تماما، ما لم نعرف كيف نعيش وفقا لإيقاعنا الذاتي..."[2]. إن فلسفة الفعل عند روبنيل وطيدة العلاقة مع فلسفة الراحة عند باشلار وكلاهما مذهبان يخدمان المعرفة سواء من حيث الوظيفية (الفعل) أو من حيث الخدمة والقيمة (الراحة). من الناحية الايبستمولوجية تعتبر الديمومة/ الاستمرارية أحد تجليات الزمن الوجودية؛ فهي دالة على السيرورة نحو المستقبل تاركة خلفها عددا لا يحصى من الآنات المؤسسة للفعل المعرفي وتفاعلاته الواقعية. فالمعرفة عندما تتمكن في الفعل الوجودي -وكما يسميه هنري برجسون Henri Bergson بالحركة الوجودية- فإنها تتحمل جراء كل هذه الاختبارات الزمنية قيمة في ذاتها لا تحملها المعرفة الساذجة، لأنها-الحركة الوجودية- " قانون ذاتي مرتبط بالزمن الذي نعيشه. وأهمية الاستمرار على فعل شيء ما، وهي نفس أهمية استمرار الحياة بمن عليها. فبدون الحركة سيصبح الموت في كل شيء"[3]. والخضرمة المعرفية قيمة في المعرفة تصطبغ بها عبر قانون الديمومة، لكنها قيمة ذات صبغة إيجابية؛ تتجلى في قدرة المعرفة المخضرمة على تجاوز الحدود المصطنعة للزمن في الواقع وفي الصيرورة، من خلال إعادة تشكلها في أشكالا وصورا مختلفة ومتنوعة؛

1. Bachelard, B.n.d. L’INTUITION DE L’INSTANT ; Etude sur la siloé de M.GASTON ROUPNEL ;1932. Un document produit en version numérique par Hélène GarciaSolek, bénévole, Hélène Garcia : lou.solek@gmail.com.

2. نقلا عن باشلار، غاستون، جدلية الزمن. ترجمة: خليل أحمد خليل. ط3. 1992. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ص 9.

1. مصطفى، محمد، قوانين التسخير: سخر إلى حياتك كل ما تريد.ط1. 2020. الوطن للنشر، ص 195.

هذه القدرة على التشكل هي في حد ذاتها قيمة إضافية في نسق المعرفة نفسه. فالسيرورة الزمنية تخدم الصيرورة المعرفية، وتجعل من التجارب المتراكمة أداة تصفية جديدة في البناء المنهجي للمعرفة بالإضافة إلى أدواة النقد الذاتي التي طورتها المعرفة في نشأتها الأولى وفي تفاعلها مع موضوعاتها الخاصة.

أ. الديمومة الزمنية للمعرفة وخصوصية النفع المعرفي

أشرنا سلفا إلى الارتباط الضروري بين سيرورة المعرفة في الزمن ومساراتها في الديمومة وبين الانتقاء التلقائي الذي يحصل في تفاصيلها ذاتها عبر الخبرة؛ أي أنها تتجه نحو تطوير آلياتها بما يجعلها أكثر تعمقا وتهيكلا وتقننا وتعقدا(نموذج علم الكلام، والنحو، وأصول الفقه...). كما يجعلها أوسع في تناولها الموضوعات كمضامين تجديدية(نموذج مبحث السياسية في كتب الكلام). وفي سياق التأصيل لهذه الترابطية لا يفوتنا أن نشير إلى الطابع الغيبي للديمومة الزمنية (قانون الاستمرارية) بما هي لا نهائية؛ فإنها ليس خاضعة لأحكام العقل(إسحاق نيوتن وكلارك صامويل) ولا لأي قوة من هذا العالم. وإحكامها ظاهريا من خلال السنن الحاكمة في الوجود لا ينافي كونها محكومة في جوهرها بقوة الله الذي هو ضامن هذه الديمومة، فليس في الوجود من له صفة الديمومة سوى الله تعالى الأزلي الأبدي. نحتاج في هذا السياق إلى تأصيل شرعي لهذه الديمومة من خلال تدبر جانب من النموذج المعرفي القرآني حتى تنال فرضيتنا حقها من الشرعية والمصداقية، فنقول وبالله التوفيق:

1. يقوم النموذج المعرفي العقدي في القرآن الكريم على مركزية عالم الآخرة وثانوية الدنيا. وتبرير ذلك قرآنيا راجع إلى الديمومة الأخروية والانقطاعية الدنيوية. كما قال تعالى : ﴿وللآخرة خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَى﴾ (الضحى:4)؛ ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ (الأعلى: 17). إنَّ خيرية الآخرة ناجمة عن بقاءها وديمومتها الزمنية، وهي بذلك تكون أنفع للمؤمن في ديمومة الراحة والحركة اللاسكونية في الجنة، ولازم هذه الديمومة المزيد من المعرفة والعلم واليقين.

2. ذكرت سورة العصر القَسَمَ بالعصر دلالة على مفهوم الزمن؛ لكنها اختارت مفهوم العصر بما فيه من الزوال وأفول النهار. لذلك أورده تعالى تاليا سياق التكاثر الذي يلهي عن ذكر الله وعن عالم الديمومة. كما أتبعها بزوال نعمة الفوز والنجاة عن الإنسان ما اختار السير على نهج المتكاثرين بالفانية المنقطعة عن الدائمة الخالدة. وبناءا عليه فالعصر بما دل عليه من زوال لا يخرج عن سياقات الخسران والهلاك على عكس الديمومة فهي سبب من أسباب النفع

وحصول الراحة. لذلك قال النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم لما سئل: أَيّ الأَعْمَالِ أَحَبّ إلى اللَّهِ؟ قَالَ: "أَدْوَمهَا وَإِنْ قَلَّ"[1] .

إن جدلية الدوام الزماني والزوال الزماني والنفع المعرفي والضر المعرفي ثنائيات تنبع من طبيعة الوجود نفسه. والمعرفة بما لها من دور بنائي في الرؤية القرآنية لا يمكن إلا أن تكون معرفة متجذرة في الزمن ومتفاعلة فيه وبه ومعه، مما يعني أنها خاضعة كليا في حقيقتها لحتمية الزمن لا لقوانين المعرفة نفسها.

ب. **الإيقاع/ الوتيرة بصفتها مفهوما زمانيا أساسيا**

لا يمكننا الحديث عن الزمن دون الحديث عن آليات اشتغاله؛ ونقصد بها آلية الإيقاع وآلية الوتيرة. والإيقاع في الزمن يعني أن " الزمن يمضي على نحو مختلف باختلاف مشارب الناس"[2]. وبالتالي فالإيقاع في الزمن المعرفي هو أيضا يمضي في المعرفة على نحو مختلف باختلاف مشارب المعرفة نفسها. ويسير هذا الإيقاع بخطوات متباينة على قدر تباين الذوات العارفة، وأيضا على قدر تباين أصناف المعرفة نفسها. فهناك من المعارف ما يمشي الزمن بها رهوا، وهناك أخرى يمشي بها الزمن خَبَبًا وهناك من وقف بها الزمن بلا حراك. كما أن المعارف ليست ذات طبيعة واحدة، فتختلف سيرورتها نحو تحصيل صبغة النفع بحسب طبائعها الأدواتية والمضمونية، وليس هذا فقط بل أيضا بحسب طبيعة الحاجة الزمنية بتلك المعرفة/ المعارف. فقد تكون المعرفة سهلة التثوير ويسيرة التطوير، لكنها تتجه بإيقاع بطيء في السيرورة الزمنية، لأن الحاجة إليها ضعيفة، وعلى العكس فقد تكون علوما صعبة في أدواتها ومضامينها وأهدافها لكنها تسير في السيرورة متسارعة لأن الحاجة إليها وطيدة (الرياضيات، علوم التكنولوجيا الذكية، الطب،...).

أما عن الوتيرة الإيقاعية: فهي أيضا مفهوم أساسي في نظرية الزمن المعرفي والديمومة الزمنية؛ فهي تتحكم في إيقاع سيرورة المعارف نحو التطور والتقدم. وتتحكم في وثيرة سيرورة المعرفة جملة من العوامل الذاتية والموضوعية. بالنسبة للعوامل الذاتية فإنها تتركز أساسا في آلة المعرفة نفسها، فلكَيْ تستمر تلقائيا فإنها تنتج آليات استمرارها الذاتية فلا تصير بحاجة إلى دوافع من خارجها. لذلك نجد علم الفقه وأصوله من العلوم التي لم تزل قادرة على العطاء والتفاعل اللاتاريخي مع المستجدات الوقتية من خلال آليات إنتاج الأحكام الذاتية (ظنية الاجتهاد الفقهي، الأجر على الاجتهاد ولو أخطأ المجتهد، تعدد أدلة

1. البخاري، محمد، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم: 6465، تح. محمد زهير بن ناصر الناصر. ط1422/1، القاهرة، دار طوق النجاة. ج 8، ص 98.
2. الفتلاوي، علي شاكر، سيكولوجية الزمن، ط1، 2010. دار صفحات للدراسات والنشر، ص 22.

الاجتهاد ومداركه...)، رغم ما تم الاستعانة به من آليات منقولة بشكل متحكم فيه وانتقائي جدا. وفي المقابل فقد ظلت العلوم العقلية والكلامية في حالة جمود تاريخي منذ القرن السابع الهجري؛ نظرا لطبيعتها التوقيفية من جهة أولى، ومن جهة ثانية: ظل ميدان العقائد محلا للتوجسات من أي اجتهاد عقلي خارج النظم والمقالات المقررة مدرسيا (مقررات المدرسة الأشعرية مثلا). كما دفع العقل المسلم الخوف من الابتداع العقدي وفقدان الآخرة إلى التراجع خصوصا في السياقات التاريخية الاستثنائية التي شنت على أرباب المقالات والتدبرات خارج الاختيارات المعرفية السائدة. الأمر الذي حال دون الإقبال على تسريع وثيرة تثوير وتجديد آليات ومضامين هذه العلوم. أما ما ارتبط بالمعارف الحديثة فإن طبيعة تشكلها التاريخي روعي فيه وجود آليات منهجية تسريعية، من خلال ما نسميه بـ" المرتبطية المعرفية الاقتصادية"؛ وهذه آلية جديدة لم يشهد لها مثيل في التراث الإسلامي؛ لأنها بنمو ثقافة الاستهلاك والفردانية وهما أمران أسسا لنظام معرفي غربي جديد ربط المعرفة بمجتمع المعرفة، وأصبحت معه المعارف سوقا استهلاكية. أما من الناحية الموضوعية فقد صارت المجتمعات الصناعية توجه المختبرات وتتحكم في وثيرة البحث العلمي(ميزانيات مرصودة للبحث العلمي)؛ كما تسهر على تسريع تخصصات معينة (بحوث التطوير الهجين للمنتجات الزراعية والحيوانية مثلا)، وتثقيل البحث في تخصصات معينة أخرى (البحث في الأخلاق الدينية والإنسانيات وتاريخ الأديان والعلوم الاجتماعية) بحسب توجيهات السوق الداخلي الغربي ومصالح الدول الكبرى. وهذا ما جعل وثيرة المعرفة الحديثة خارجة عن إمكانية التحكم داخل النظام المعرفي الغربي نفسه ناهيك عن الأنظمة المعرفية التابعة له[1].

ثالثا: الإنسان بين سنن الخسر وسنن الفوز

يتأسس هذا المحور على الآية الثانية من سورة العصر المباركة. وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خسْرٍ﴾؛ وقد رأينا التناسبية بين خسران الإنسان والقسم بزوال اليوم (العصر). وقصدت هذه الآية- حسب مقاتل بن سليمان- الحديث عن" أبي لهب، ... يعني أنه لفي ضلال أبدا حتى يدخل النار"[2]. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من اتصف بصفات أبي لهب فقد خسر مثل خسرانك، وزال شهوده مثل زوال شهوده. وقد توعده الله استقباليا في سورة المسد بالخلود في نار جهنم قبل وفاته بعشر سنين، فكان الأمر كذلك حتى مات بعد وقعت بدر الكبرى بثلاث ليال بمرض "العدسة" ولم يسلم[3]؛ وزوال الإنسان الخاسر لا محالة واقع كزوال اليوم لا محالة واقع. ونضيف في هذا المقام؛ أن التناسبية تتجلى

1. انظر: المنجرة، المهدي، قيمة القيم. ط2. 2007. د.ن، ص 184.
2. مقاتل، بن سليمان، مصدر سابق، ج1، ص 829.
3. يمكن أن تطبق منهجية التداولية الزمنية في اخبارات الله المستقبلة بما هي عمق للحاضر وأساس له، دون الحاجة بالمرور بالمتغيرات والتجارب التاريخية.

أيضا في أن الزوال والإنسان كلاهما ينتميان إلى عالم الشهادة، غير أن المنظور القرآني للإنسان لا يقصره على هذه الأحدية، وبمعنى آخر: "ليس دنيويا فقط، لأنه مخلوق لله الواحد، سبحانه وتعالى، وهو في هذه الدنيا ليس موكولا إلى واقعه المحسوس وإلى حواسه وحدهما، لأنه فيها خليفة الله، سبحانه، مكلف بإعمارها وفق بنود عهد وعقد استخلاف، وهذه الأمانة التي تحملها هي الابتلاء الذي سيحاسب عليه، بعد البعث في يوم الدين"[1]. والحساب الأخروي يقوم على اتصاف المكلف/ المستخلف بصفة العلم والمعرفة حتى تقوم عليه الحجة الرسالية مصداقا لقوله تعالى :﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسولًا﴾ (الإسراء: 15). وعندما يفارق الإنسان صفة المعرفة ويركن إلى الجهل أو يتحمل معاناة معرفة خارجة عن منهج الله فإنه يخرج بهاتين الصفتين عن طابع الفطرية والحنيفية اللازمتين لحسن فهم العالم وفعل الله فيه. فهي " تؤمن بعالم الشهادة وتعمل طاقاتها فيه، وجهها القرآن توجيها جعلها تستغل ما تدركه استغلالا كبيرا لتخرج منه بثمرة المعرفة، وهي الإيمان بالله سبحانه الذي خلق هذا العالم وما فيه. وطاقات الإنسان موجهة لأن تؤمن بالغيب من خلال قوانين عالم الشهادة."[2]. لذلك فلابد للعارف المكلف أن يحافظ على فطرته التي توجهه نحو التناسق من عناصر الوجود ثنائي الطبيعة. وأول ما يحافظ به على فطرته؛ " أن يؤدي الإنسان واجبه في الحياة عارفا لنفسه ولربه، وللواقع وللدور الذي يقوم به والتكاليف الملقاة على عاتقه، وبطبيعة العلاقة بينه وبين خالقه. والإيمان والعبادة أو الهدى علم ومعرفة إذ هي أساس تعامل الإنسان مع ربه، وفي الواقع الذي يعيشه"[3] . وهذه المقومات هي التي تجعل من الإنسان العالم عنصر المعرفة الأول، وهي التي تجعله في قمة الأصناف البشرية الثلاث التي تستحق وراثة الأرض الاستخلافية؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا في ٱلزَّبورِ مِن بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحونَ﴾ (الأنبياء: 105). والعباد الصالحون هم القادرون على إنتاج كل أصناف المعارف الحقانية التي تمكنهم من العلم باليقين الممكن الوجود بكل تفاصيل الخلق، من خلال تعدية مناظير الرؤية التدبرية للوجود ذي الطبيعتين المتكاملتين والمترابطتين(طبيعة الغيب وطبيعة الشهادة). وكل نقص في المناظير يؤدي إلى نقص في المعرفة كيفا وكما –كل بحسبه-، وبالتالي النقص في صلاح الحالة وفي إصلاحيته الاستخلافية أيضا. وتتجلى أهم عناصر الصلاح في العارف: " – معرفة الإنسان الوجهة. – إضافة الإنسان الوجهة إلى العمل المخصوص بالمقدار المخصوص، والزمن المخصوص بالمقدار المخصوص.– القبلة بما تعنيه من نية التوجّه إلى الله بالعبادة. وهذه العناصر كلها ترتبط بقدرة الإنسان الصالح على توجيه طاقة التساؤل بحيث ترتبط بين العمل والعبادة، فيصبح بذلك الإنسان الصالح هو "القادر بعلمه، أو سؤال أهل الذكر ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كنتمْ لَا تَعْلَمونَ﴾ [النحل: 43]؛ إن كان لا يعلم على أن يضيفه إلى حركته انطلاقا من وعيه

1. عمارة، محمد، السنة النبوية مصدر للمعرفة. مرجع سابق.
2. عكاشة، رائد، التكامل المعرفي. مرجع سابق، ص 302.
3. الكردي، راجح، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، مرجع سابق، ص 151.

الدائم بقبلته، ووظيفته ومصدر رشده عن طريق استنطاق هذا المصدر بالترتيل قصد التلاوة"[1]. أما صناعة هذا الإنسان فتكون –حسب أحمد عبادي- بـ" ضبط تصورات الإنسان للوجود، وعلاقته بالله والكون والإنسان والحياة والآخرة"[2]. وكل عارف يتنكب طريق الله في المعرفة كلا أو جزء، منهجا أو مقصدا أو كلها معا؛ تصير حياته حياة خسران، ويكون هو أيضا في حالة خسران، لأن وعد الله لا يخلفه. مصداقا لقوله تعالى : ﴿فَاعْبدوا مَا شِئْتم مِّن دونِهِ. قلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِروا أَنفسَهمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَلَا ذَٰلِكَ هوَ الْخسْرَان الْمبِين﴾ [الزمر: 15].

رابعا: الإيمان بالله، الوجود الغيبي والتكميل المعرفي

بينت سورة العصر أن التجافي عن الله ونسيان الاستعداد للآخرة والحساب يورث الإنسان الخسران المبين؛ فيزول استخلافه بزوال تسخيره، كما يزول اليوم بزوال الشمس عن الأفق وقت صلاة العصر. وهو الوقت الذي يعصر فيه الناس ثمارهم بعيدا عن لهيب الشمس ودون فقدان النور، ومن ضيعه ضاع عليه أوان العمل والنفع. غير أن السورة قد استثنت من هذا العموم طائفة المؤمنين؛ فهم في بقاء لا يزول، وفي فوز لا يغيب؛ كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: 2-3]. وأول سلاح المؤمن أمام زوال شهوده الدنيوي هو اعتصامه بالإيمان بالله؛ والإيمان هو نطاق في المعرفة الإسلامية يرمي إلى ربط العارف بمدبر مريد متحكم بمقاليد العالم، وهو الخالق له، المستحق بحق للعبادة وحده دون غيره. وفي تدبير الله لشؤون العالم جعل مخلوقات علوية، أقسم بها في قوله: ﴿فَٱلْمدَبِّرٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: 5]، ناطقة بتعدد العوالم الكونية، بما هي تجل لقدرة الله على تنويع الخلق، والتكامل الوظيفي بينهم كل قد علم صلاته وتسبيحه.

إنَّ دور المعرفة الإسلامية هو الكشف عن ذلك الوجه الخفي من الوجود الذي تعجز المؤهلات الحسية للإنسان عن إدراك حقيقته. ولما كانت معرفة الإنسان بالوجود لا تكمل في الرؤية الإسلامية إلا بالكشف عن كنه نطاق الغيب الذي صدر عنه هذا الوجود، والذي هو مصدر كل خير فيه فـ" إن الله لم يكله-في المعرفة- إلى حواسه وحدها، وإلى قدرته بمفردها... فكانت رسالات السماء مصادر للمعرفة، لا تلغي المعارف المحسوسة المشاهدة، ولا تقلل من شأن أدوات إدراكها، وإنما تضيف إلى المعرفة الإنسانية معارف يقينية، لا تثمر المادة وتستقل بإدراكها الحواس، لأنها معارف عوالم غير مادية. وإنباء عن مقادير من علم هذه العوالم، تفضل بها على هذا الإنسان عالم الغيب والشهادة، وذلك حتى يظل هذا الإنسان –

1. عبادي، أحمد، مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج. ط1. 2007. دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص 162. نقلا عن الحسني، إسماعيل. مفهوم الإصلاح في القرآن المجيد: دراسة في أسبابه ومظاهره. إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر.المجلد20، العدد80، 1342ه، ص: 21.
2. عبادي، أحمد، مفهوم الترتيل نقلا عن المرجع السابق.

المكون من الروح والجسد- بمعزل عن غذاء الروح وحبيسا للمعارف المادية دون سواها..."[1]. فلا سبيل إلى إدراك المعارف الغيبية إلا بدلالة الوحي والنبوة (الدليل النقلي=الدليل السمعي)؛ لذلك فهي توقيفية لا تقبل الاجتهاد ولا التجديد، اللهم في تفهمها وحسن توظيفها بما يساهم في تقدم المعرفة البشرية، والمزيد من الكشف عن جوانب الغموض في هذا العالم، وترقية المسلم إلى المزيد من اليقين في الله ونور البصيرة والعقل. وتتميز الحقيقة الغيبية بمميزات لا تتوفر في الحقيقة الشهودية أهمها:

- الحقائق الغيبية حقائق يقينية ونهائية فهي لا تقبل الخطأ ولا يعتريها الوهم ولا التناقض، لأنها من لدن الحكيم الخبير؛ ﴿أَلَا يَعْلَم مَنْ خَلَقَ وَهوَ اللَّطِيف الْخَبِير﴾ [الملك:14]، اللهم إن أساء الإنسان تلقيها أو لم يتعامل معها بمنهجها الأصيل لا بمنهج دخيل.

- الحقائق الغيبية حقائق شمولية، فهي تكشف عن حقائق الأزمنة الثلاث: الماضي(قصص الأقوام السابقين، والأنبياء السالفين...) والحاضر (سنن الله في العالم والقوانين الحاكمة فيه) والمستقبل (أحداث نهاية الزمن، ويوم القيامة، ومصير الناس ومآلاتهم).

- الحقائق الغيبية حقائق لا تتناقض مع العقل الصريح ولا مع الوجود الصحيح. فهي مصادر للمعرفة الإسلامية متكاملة ومترابطة ومتنوعة مع الحقائق الأخرى بما هي أيضا من خلق الله. لأن الحقيقة الغيبية واضحة في مصدرها كالحقيقة في عالم الشهادة "وتشكل معا مجالين للنظام المعرفي، متكاملين متقابلين يؤديان في النهاية إلى وحدة المعرفة، التي تعود –كما يرى الفاروقي-إلى وحدانية الله ومنه إلى وحدة الحقيقة"[2].

- الحقائق الغيبية مهيمنة على الحقائق العقلية والتجريبية، "وإذا كان العقل قادرا على تصحيح الخطأ في عالم الشهادة بمزيد من الاختبار والتجربة، فإن الوحي قادر على ترشيد التفكير العقلي في قضايا عالم الغيب؛ لأن مهمة العقل تقف عند التصديق بمبدأ الغيب ووجود عالمه ويتعذر عليه استقصاء مضامين الغيب والتحقق من كنهها بوسائله المعروفة في عالم الشهادة"[3].

- الحقائق الغيبية مصدقة للحقائق العقلية والتجريبية الصريحة والنهائية؛ فالحقائق الغيبية تأتي "تأكيدا للمعارف العقلية الصادقة، يطَمْئن الإنسان العاقل إلى صدق ما وصل إليه بعقله الإنساني، عندما وصل ذاتيا، إلى تحسين الحسن وتقبيح القبيح..."[4].

---

1. محمد عمارة، مرجع سابق، ص 424.
2. عكاشة، رائد، التكامل المعرفي، مرجع سابق، ص 302.
3. ملكاوي، مقالات في إسلامية المعرفة، مرجع سابق، ص 27.
1. عمارة، محمد، مرجع سابق، ج 2، ص 424.

- الحقائق الغيبية هي حقائق رَشدية وهدائية وتبشيرية، فهي تهدي إلى ما يرشد الإنسان ويقوم اعوجاجه البنيوي الناتج عن ضعف الخلقة والجبلة. كما تهدي إلى التي هي أقوم مصداقا لقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]. والتي هي أقوم هي الآيات البّينات التي هي خارج الوعي الإنساني، والتي بها يجعل الله المؤمن على بينة بما ينفعه في العاجل والآجل. وهي الآيات الشهودية (المشادة بالأبصار). وهي أيضا الآيات الغيبية(المشاهدة بالبصائر)؛ فالآيات الدالة على صدق الأنبياء هي بينات جعلها الله وسائل لهداية الخلق إليه وهي في الغالب –وحتى المشاهد منها بالأعين- لا تخلو من الغيب لأنها خارج وعي الإنسان ظاهرا وباطنا، ولا يعلم حقائقها إلا الله سبحانه.

والآليات المنهاجية القرآنية لتثوير المعرفة ما هي إلا أمثلة ونماذج فحسب، وإلا فقد " ترك للعقل اختراع ما يراه صالحا لتحقيق المقاصد مما وافق تلك النماذج والأمثلة أو خالفهما"[1]. وقد حدد عبد المجيد النجار آليات ربط المعرفة البشرية بالوحي في خمس آليات وهي:

1. **الآلية اللغوية:** وتتجلى في مراعاة قوانين اللغة التي نزل بها الوحي.
2. **الآلية المقاصدية:** وهي مقاصد الله من الوحي التي ترجع في عمومها إلى تحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل.
3. **الآلية التكاملية:** وهي اعتبار الوحدة التكاملية بين عنصري الوحي قرآنا وسنة؛ فهما يشكلان وحدة تكاملية ترسم منهج استخلافية الإنسان.
4. **الآلية الظرفية:** يضرورة الوقوف على مناسبات الوحي من أسباب النزول والسياقات الزمانية والمكانية والعصرانية لزمن النبوة.
5. **الآلية العقلية:** وهي ما توصل إليه العقل الإنساني من علوم ومعارف نتيجة النظر والبحث، فهذه العلوم يمكن أن تكون أساسا لفهم المراد الإلهي في نصوص الوحي[2].

خامسا: العمل الصالح وتنقيح المعرفة

من عواصم الوعي الإنساني التي عرضتها سورة العصر؛ الإعتصام بالعمل الصالح؛ تصديقا قوله تعالى : ﴿إِنَّ الإنسانَ لفي خسْرٍ. إلا الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ﴾[العصر:2]. والإيمان والعمل الصالح قرينان في كتاب الله لا يفترقان، ولا يصلح أحدهما دون الآخر. قال ابن عباس في تأويل الآية: "عمِلوا الصَّالِحاتِ فيما بينهم وبين ربّهم، وقال: العمل الصالح يكون فيه أربعة أشياء: العلم، والنية، والصبر،

2. النجار، عبد المجيد، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل: بحث في جدلية النص والعقل والواقع، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط3، 2005، ص 108.
3. انظر: المرجع السابق، ص 92-96.

والإخلاص"[1]. وقيل: "﴿وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ﴾ أَيْ أَدَّوا الْفَرَائِضَ الْمُفْتَرَضَةَ عَلَيْهِمْ"[2]. والعمل الصالح من النطاقات النهائية للمعرفة الإسلامية؛ لأنه ثمرة كل النماذج والمناهج والآليات المعرفية التي ما تنزلت آية في كتاب الله إلا لتحقيق مناطاتها في التاريخ والحاضر والمستقبل؛ يقول طه عبد الرحمن: " والمعرفة ما لم تنفعل بها الذات وتفعل بها في الغير فلا عمل تحتها كذلك... واستعمال المعرفة أن تكون نافعة" [3]. ومن شروط تكامل العمل مع المعرفة مايلي:

أ.أن تقتضي المعارف الإسلامية أحكاما عملية؛ فليس من الإسلام علوم ليس تحتها عمل. وكان علماء الإسلام ينهون عن ذلك حتى " كَانَ مَالِك بْن أَنَسٍ يَقول: «الْكَلَام فِي الدِّينِ أَكْرَه ... وَلَا أحِبّ الْكَلَامَ إِلَّا فِيمَا تَحْتَه عَمَلٌ فَأَمَّا الْكَلَام فِي الدِّينِ وَفِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَالسّكوت أَحَبّ إِلَيَّ؛ لِأَنِّي رَأَيْت أَهْلَ بَلَدِنَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْكَلَامِ فِي الدِّينِ إِلَّا مَا تَحْتَه عَمَلٌ»"[4]. وما أصاب علم الكلام الإسلامي من فتور وانسحاب مبكر من تأطير واقع المسلمين إلا بسبب تنحية الأحكام العملية أو ما يسمى بعلم الأخلاق من كتب العقيدة ابتداء من القرن الرابع الهجري بعد أن ازدانت بها قبل ذلك[5]. يقول طه عبد الرحمن: " فكل معرفة عقلية نافعة، لابد أن تنتقل من مستوى مجرد التمييز النظري إلى مستوى التخلق السلوكي بها ولو كانت لغة أو منطقا أو حسابا، لأنها بفضل هذا التخلق تنفذ إليها المعاني اللطيفة والقيم الروحية، فتقيها مساوىء التنظير الجاف والتسييس الضار، وتمدها بأسباب العمل المسدد وتأنيس المتبصر"[6].

ب. أن يتطابق العمل مع المعرفة في المقاصد والوسائل، فما تصلح به المعرفة يصلح به العمل وما تفسد به المعرفة يفسد به العمل. وهذا أمر يقتضي التكامل بين المعرفة وعملها، بحيث تخدم المعرفة العمل توجيها وتأطيرا وتقعيدا وفي المقابل يقوم العمل بتزكية النفس العارفة بتلك التوجيهات والتقعيدات والتأطيرات حتى تتطابق المعرفة النظرية بعمل النفس.

---

1. الثعلبي، أحمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن. تحقيق: الطاهر بن عاشور. مراجعة: نظير الساعدي، ط1. 2002. بيروت: دار إحياء التراث العربي. ج 1، ص 170.
2. القرطبي، محمد، الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط2. 1964. القاهرة: دار الكتب المصرية. ج 20، ص 180.
3. طه، عبد الرحمن، تجديد المنهج، مرجع سابق، ص: 248، يتصرف
4. ابن عبد البر، يوسف، جامع بيان العلم وفضله. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. ط1. 1994. السعودية. دار ابن الجوزي. ج 2، ص 938.
5. وقد تتبعنا تفاصيل هذا الشرخ المنهجي بتفصيل في كتابنا "العقيدة الأشعري من منظور الفكر الإسلامي المعاصر: من التطبيق إلى الفاعلية الحضارية"، صدر هذه السنة (2022) عن دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
6. طه، عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق، ص 86.

ت. من شروط العمل في المعرفة الإسلامية أن يتوجه إلى تزكية النفس العارفة ابتداء؛ وإلا عارض العمل المقصد من المعرفة وهي تزكية النفس العارفة. فليست معرفةً إسلاميةً من توجه العمل إلى نفع الناس وتستنكف عن نفع الذات الناقلة لها. قَالَ رَسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : "مَثَل الْعَالِمِ الَّذِي يعَلِّم النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَه كَمَثَلِ السِّرَاجِ يضِيء لِلنَّاسِ وَيَحْرِق نَفْسَه"[1].

ث. المعرفة الإسلامية تقتضي العمل الصالح الخالص لله في نية الإتيان به، والموافقة لشرع الله. قَالَ الفضَيْل بْن عِيَاضٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكمْ أَيّكمْ أَحْسَن عَمَلاً وَهوَ الْعَزِيز الْغَفور﴾ [الملك: 2]. «هوَ أَخْلَصه وَأَصْوَبه»، قَالوا: «يَا أَبَا عَليٍّ، مَا أَخْلَصه وأَصْوَبه؟»، فَقَالَ: "إِنَّ العَمَلَ إِذاَ كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكنْ صَوَابًا لَمْ يقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكنْ خَالِصًا لَمْ يقْبَلْ حَتَّى يَكونَ خَالِصًا صَوَابًا. الخَالِص أَنْ يَكونَ للهِ، وَالصَّواب أَنْ يَكونَ عَلَى السّنَّةِ"، ثمَّ قَرَأَ قَوْلَه تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:11]"[2] صحيح أن النية أمر خارج عن طبيعة المعرفة والعمل، غير أن هذا أمر يتجلى في الظاهر فقط؛ لأن النية هي جزء أصيل في العمل الصالح، وتحقيقها بالإخلاص له علم مستقل وهو علم السلوك. وينقض التوحيد بماهو أساس المعرفة الإسلامية بمجرد نقض الإخلاص لأنه عمل القلب، كما ينقض أيضا بالابتداع في الدين لأنه عمل الجوارح لذلك فهذه القيم يكمل بعضها بعض في سبيل تحصيل شرف الانتماء إلى الإسلام في نظرية المعرفة.

سادسا: منظومة القيم القرآنية والتكامل المعرفي، بين الحقانية والصَّبرانية

قيم تزكية النفس جزء لا يتجزأ من العمل الصالح، فكيف يستقيم عمل صالح دون أن تدفعه قوة دافعة من قيم الصلاح والفلاح والخير؟ فكل ما تحدثنا عنه من تكاملية العمل الصالح والمعرفة فإن القيم (علم الأخلاق) داخلة فيه بالأصالة نظرا للمقصد التزكوي للنفس وللمعرفة التي وحَّدَتهما معا. وفي هذا المحور وجدنا أنفسنا مضطرين إلى توسيع نطاقات المعرفة نحو التركيز على قيمتي الحق والصبر دون غيرها من قيم التزكية، نظرا للترابطية الواضحة والمؤكَّدة بينهما في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

فرقت سورة العصر بين الإيمان والعمل الصالح والقيم الأخلاقية التزكوية في قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِيْنَ اٰمَنوْا وَعَمِلوا الصالِحٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ. وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:2-4]. قال مقاتل: " وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ يعني بتوحيد الله- عز وجل- وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ يعني على أمر الله- عز وجل-، فمن فعل هذين كان

1. الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، مرجع سابق، ص 49.
2. ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. تح. محمد المعتصم بالله البغدادي. ط3. 1996. بيروت: دار الكتاب العربي. ج1، ص 104.

من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فليسوا من الخسران في شيء، ولكنهم في الجنان مخلدون"[1]. وكذلك المعرفة، فكل معرفة مؤمنة تنتج عملا صالحا ليست من معارف الخسران ولا يكون عارفها من أهل الخسران أبدا. والحق والصبر خلقان عظيمان من أخلاق الإيمان، وقد عرضتهما سورة العصر باعتبارهما مفاتيح النجاة من الخسران الإنساني؛ فما أثرهما في المعرفة الإسلامية؟

أ. قيمة الحق في المعرفة الإسلامية

ابتداء ينبغي التأكيد على أن " التكامل بين المعرفة والقيم هو المسلك الابستمولوجي الآمن من تمزق المعرفة والحياة، أو القيمة والوصف. وإذ كانت إبستمولوجيا العلوم أرخت لهذا الانفصال، فإن الابستومولوجيا التكاملية نادت بالتكامل بينهما"[2]. ويظهر هذا الارتباط والتكامل المعرفي-الحياتي من خلال قيمة الحق، بما هي مصداق عن الحق الأعلى جل ذكره: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ [لقمان: 30]. والحق في النظرية العلمانية قيمة مجردة عن الأخلاق، كما هو الحال عند قدماء اليونان وفي الفلسفة الغربية[3]. أما في المعرفة الإسلامية فالحق هو اسم من أسماء الله تعالى، بل وهو الله نفسه، وهو أساس نظرية الحق في المعرفة والسياسة والقانون والاجتماع وغيرها. فما معنى الحق في القرآن الكريم؟ وكيف يتكامل قيمة الحق مع المعرفة البشرية حتى يصيران معا معرفة هدائية ربانية؟

الحق في اللغة: يقول الأصفهاني: " أصل الحَقّ: المطابقة والموافقة، كمطابقة رِجْل الباب في حقِّه لدورانه على استقامة. والحقّ يقال على أوجه: الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ... والثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله تعالى كلّه حق، نحو قولنا: الموت حق، والبعث حق،... والثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنّة والنّار حقّ، قال الله تعالى : ﴿فَهَدَى اللَّه الَّذِينَ آمَنوا لِمَا اخْتَلَفوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ [البقرة/ 213] . والرابع: للفعل والقول بحسب ما يجب وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب.."[4].

–أما في القرآن الكريم فـ" المراد منه على سبيل التعيين يختلف باختلاف المقام الذي وردت فيه الآيات، ومعناه العام لا يخلو من الثبوت والمطابقة للواقع. فالحق: هو الله لأنه هو الموجود الثابت لذاته.

---

1. مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل، مرجع سابق، ج 4، ص 829.
2. بلعقروز، عبد الرزاق، ربيع. القيم الأخلاقية والعلوم الاجتماعية: نحو إبستمولوجيا القيم الحاكمة. إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، المجلد 20، العدد 80، 2015،، 75-110.
3. انظر: باكر، إرنست، النظرية السياسية عند اليونان. ترجمة: لويس اسكندر. مراجعة: محمد سليم سالم. مؤسسة سجل المغرب. 1966. ج1، ص 133-134.بتصرف يسير.
4. الأصفهاني، الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي. ط1. 1412ه. دمشق: دار القلم، الدار الشامية، ص 246. بتصرف.

والحق: كتب الله وما فيها من العقائد والشرائع. والحق: الواقع لا محالة الذي لا يختلف. والحق أحد حقوق العباد وهو ما وجب للغير ويتقاضاه. والحق: العلم الصحيح. والحق: البين الواضح. والحق: العدل. والحق: الصدق. والحق: الواجب. والحق: الحكمة التي فعل الفعل لها. والحق: قد يراد به البعث. والحق: المسوغ بحسب الواقع. والحق: التام الكامل"[1]. وحتى تكون المعرفة الإنسانية معرفةً إسلاميةً في أي حقل من الحقول العلمية التخصصية؛ ينبغي أن تتصف بصفات الحق التي حددها لها القرآن الكريم.

تستحق المعرفة شرف الانتساب إلى الإسلام بقدر ما حققت من خصال الحقانية القرآنية العاصمة من قواصم الزلل والوهم؛ فالمعرفة الإسلامية يجب أن تطابق الواقع كي لا تسقط في الوهم والكذب. ويجب أن تحقق حقوق العباد وأن تنتصف للمظلوم من ظالمه حتى لا تقع في الظلم والركون إلى الظالمين. علما أن الإسلام والظلم نقيضان لا يجتمعان، ويبطل أحدهما الآخر. والشرك بما هو نقض للوحدانية وإبطال لعرى الألوهية في النفوس فهو أعظم الظلم في كتاب الله، مصداقا لقوله تعالى : على لسان لقمان الحكيم ﴿يابنَيّ لا تشرك بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]. جاءت المعرفة الإسلامية نقيض هذا الظلم الذي يوقعه الإنسان بنفسه ابتداء وبربه انتهاء؛ فيبطل الله الشرك وأهله، ويبطل معهما كل المعارف التي تؤدي إليه كعلم السحر والكهانة والنجوم والجروف والحروف والأبراج وعبادة غير الله باعتبارها فتنة.

قيمة الصبر في المعرفة الإسلامية

الصبر في لسان العرب من الثلاثي صَبَرَ؛ يقول الأصفهاني: " الصَّبْر: الإمساك في ضيق، يقال: صَبَرْت الدّابّة: حبستها بلا علف، وصَبَرْت فلانا: خلفته خلفة لا خروج له منها، والصَّبْر: حبس النّفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه، فَالصَّبْر لفظ عامّ، وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النّفس لمصيبة سمّي صبرا لا غير، ويضَادّه الجزع، وإن كان في محاربة سمّي شجاعة، ويضادّه الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمّي رحب الصّدر، ويضادّه الضّجر، وإن كان في إمساك الكلام سمّي كتمانا، ويضادّه المذل، وقد سمّى الله تعالى كلّ ذلك صبرا، ونبّه عليه بقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ﴾..."[2]. والصبر هو من القيم المركزية في علم الأخلاق القرآني، فلا يمكن للعارف القيام بواجبات الاستخلاف إلا بالمعرفة الإسلامية والتي بدورها لا يمكن تحصيلها إلا بالصبر. والصبر بماهو حبس النفس ودفعها إلى تحمل المشقة، فإنه لا يفعل مفعوله إلا في السياقات القاهرة، وهي السياقات التي تستوجب بذل الجهد أكثر من المعتاد أو أعلى من المستطاع. لذلك اشترط

1. الراوي، محمد، كلمة الحق في القرآن الكريم: موردها و دلالتها. ط1. 1995. الرياض: مكتبة العبيكان. ج1، ص 2021.
2. الأصفهاني، الراغب، المفردات، مرجع سابق، ص 474.

سيدنا الخضر عليه السلام على سيدنا موسى عليه السلام الصبر وحبس النفس عن معارضة ما لا تطيقه من عجائب الوقائع والشدائد حتى يحدث له ذكرا. ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناه رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناه مِنْ لَدنَّا عِلْماً . قالَ لَه موسى هَلْ أَتَّبِعكَ عَلى أَنْ تعَلِّمَنِ مِمَّا علِّمْتَ رشْداً . قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً . وَكَيْفَ تَصْبِر عَلى مَا لَمْ تحِطْ بِهِ خبْراً . قالَ سَتَجِدنِي إِنْ شاءَ اللَّه صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ [الكهف: 65-70]. وقيمة الصبر في المعرفة رافعة لنوعين من التحديات:

أولهما: تحدّ في صلب طالب العلم نفسه. (تحد ذاتي)

وثانيهما: تحدّ في صلب المعرفة نفسها. (تحد موضوعي)

أما الأول: فالمعرفة منحة إلهية إلى الناس، تزرع في نفس طالبها من العجب والكبر والرياء ما يخرج طلبه من حالة الإخلاص والقبول إلى حالة الشرك الأصغر[1] والردود. قال حَمَّادَ بْنَ سَلَمَةَ يَقول: "مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ لِغَيْرِ اللَّهِ مكِرَ بِهِ"[2]. أما التحدي الثاني: فيتجلى في الإشكالات المنهجية المعقدة التي تطرح أمام المعرفة الإسلامية حتى تستقل عن النماذج العلمانية المهيمنة. والمعرفة الإسلامية بما هي معرفة إلهية يجب أن يتم النظر فيها على أكمل الوجوه الممكنة وبأكمل المناهج العلمية المتاحة. وهنا تحضر قيمة الصبر كقيمة بنائية تستلزم الكمال رغم ما يعني الوصول إليه من معاناة وألم. **والمعرفة الصبرية** هي المعرفة التي تشتد أسسها في الأرض وتبسق فروعها في السماء. وهي أيضا المعرفة التي تتأسس على الكلمة الطيبة (القيم البنائية الإسلامية) التي تجعلها مقاومة لعوامل الهدم الزمانية (المناهج والتيارات خارج النسق الإسلامي)، وصامدة في مواجهة الزلازل المعرفية والشبهات التي تقصد زعزعة استقرارها من الداخل.

خاتمة

إن المعرفة البشرية بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى إصلاح ثوري جديد، يعيد للمعرفة دورها في النهوض بالإنسان وتجاوز أزماته. وتلك غاية حرص البحث على توضيح المنهجية الكفيلة بتحقيقها عبر تجسير النطاقات المعرفية التي فصلتها عن بعضها العلمنة، وهيمنة النماذج ذات البعد الواحد. وسواء كانت هذه النماذج صورية أو استبطانية أو غيرها فإنها بحاجة إلى تعميق معرفتها بالوجود من خلال رؤية تعددية تشمل مختلف زوايا النظر الممكنة، وإن التكامل المعرفي الذي طبع المعرفة الإسلامية منذ شهودها الأول كان انعكاسا للمنهجية المعرفية القرآنية. وقد اختزلت سورة العصر –رغم عدد آياتها المحدود- النطاقات المعرفية الأساسية لإحداث ثورة تكاملية إصلاحية في نسق المعرفة البشرية

---

1. الشرك الأصغر هو الرياء كما جاء في بعض الأحاديث.
2. انظر المزيد من الآثار عند ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، مرجع سابق. ج1، ص 663.

الحديثة. ولم تكتف بذلك فحسب بل أسست لنطاق جديد في المعرفة الإسلامية أضافته إلى النطاقات المعرفية التقليدية وهو نطاق الزمن الوجودي الذي لم يكشف عن دوره في المعرفة الإسلامية. وحسب نظرية الزمن المعرفي فإن عناصر تجديد المعرفة التاريخية ليست خاضعة لتفاعلية العارفين وحدهم ولا لحركية المعرفة الموضوعية ذاتها بل هي تفاعلية بين حتمية الزمن في سيرورته وفي تكامله مع الموضوعات المعرفية والذوات العارفة. وهو الحتمية الذي تعيد المعرفة إلى أصولها وفقا لسيرورات خاصة بها؛ كما تقوم النطاقات الأخرى بدورها في إغناء نظرية المعرفة الإسلامية بتوضيح معايير استخلافية العارفين، وتوسيع مجال التداول؛ ثم التحذير من عوامل الخسر الإنساني. وعليه، فقد عملت سورة العصر على تحديد دقيق للنطاقات المعرفية اللازمة لإحداث ثورة في المعرفة البشرية مشترطة خضوعها لمنهجية تكاملية دل عليها الحضور القوي لحرف العطف (الواو) كرابط متين. وإن كانت سورة التكاثر قد فصَّلت أعراض الخسران الإنساني فقد اختصت سورة العصر بالتعريف ببروتوكولات الشفاء، وجعلت كل تخلف عن أحد هذه البروتوكولات انحدارا بالإنسان العارف نحو مستويات من الخسران بما هي تجلٍّ من تجليات الفشل الاستخلافي الشامل. ومن الخلاصات المهمة التي خلص إليها هذا البحث مايلي:

- سورة العصر عاصمة من عواصم الوعي البشري من قواصم الزلل المنهاجي.
- تضمنت سورة العصر خمس نطاقات معرفية متكاملة ومترابطة فيما بينها، مقصدها الموحد وهو تطوير المعرفة الإنسانية وإنقاذ الإنسان من الخسران والضلال.
- أكدت سورة العصر على النزعة التكاملية التي بين النطاقات المعرفية الخمس، فهي وحدة كلية مجانسة مقصدا ومنهجا وآليات ومضامين.
- أكدت سورة العصر على مركزية الزمن الوجودي في تثوير المعرفة الإسلامية بما يجعله تثويرا ميتافيزيقيا معتبرة التحكم في سيرورة المعرفة خارج عن الوعي الإنساني كله.
- أكدت سورة العصر على وظيفية النطاقات المعرفية بربطها بالعمل الصالح (النفع في الواقع = الصلاح والإصلاح).
- أكدت سورة العصر على القيم كمحرك أساسي للمعرفة الإنسانية، وحددت قيمها المركزية في قيمتي الحق والصبر، والله أعلم .

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. ابن الأثير، الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م.
2. ابن الزبير الغرناطي، أحمد، البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب، 1410 هـ - 1990 م.
3. ابن حزم، علي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد محمد شاكر، قدم له: الأستاذ إحسان عباس، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
4. ابن سِيدَه، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ 1996م.
5. ابن سيده، علي، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2000 م.
6. ابن عبد البر، أبو عمر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994 م.
7. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.
8. ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، 1416 هـ - 1996م.
9. ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد (وفق المنهج المعتمد من بكر بن عبد الله أبو زيد - -)، راجعه: مَحَمَّدْ أَجْمَل الإصْلاحِي، سليمان بن عبد الله العمير، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1432 هـ.
10. ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420هـ - 1999 م.
11. ابن كثير، إسماعيل، قصص الأنبياء، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التأليف – القاهرة، الطبعة الأولى، 1388 هـ - 1968 م.

12. أبو داود، السجستاني، السنن، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، 1430 هـ - 2009م.
13. الأصفهاني، الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى - 1412 هـ.
14. الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 1996.
15. باركر، ستيوارت، التربية في عالم ما بعد الحداثة، ترجمة: سامي محمد نصار، تقديم: حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 2007.
16. باشلار، غاستون، جدلية الزمن، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1992.
17. باكر، ارنست، النظرية السياسية عند اليونان، ترجمة: لويس اسكندر، مراجعة: محمد سليم سالم، مؤسسة سجل المغرب، 1966.
18. البخاري، محمد، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
19. بوهادي، عابد، الإحالة الزمنية لأدوات النفي وتطبيقاتها في القران الكريم، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2013.
20. بياجيه، جان، البنيوية، ترجمة: عارف منمينه وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت باريس، الطبعة الرابعة، 1985.
21. الترمذي، محمد بن سورة، السنن، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ 4، 5)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة الثانية، 1395 هـ - 1975م.
22. التستري، سهل، تفسير التستري، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى - 1423 هـ.
23. الثعلبي، أحمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى 1422، هـ - 2002م.

24. جاكسون، ليونارد، بؤس البنيوية: الأدب والنظرية البنيوية، ترجمة: ثائر ديب، دار الفرقد، الطبعة الثانية، 2008.
25. حكمي، حافظ، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، 1990.
26. الحميري، نشوان، شَمْسِ العلوم ودَواءِ كلَامِ العَرَبِ منَ الكلوم، صَحيحِ التَّأليفِ والأَمان منَ التصحيف، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - د يوسف محمد عبد الله، = دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، الطبعة الأولى، 1420هـ - 1999م.
27. الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، تحقيق: حمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الرابعة، 1397ه.
28. الخطيب التبريزي، محمد العمري، مشاكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة، 1985.
29. الراوي، محمد، كلمة الحق في القرآن الكريم: موردها و دلالتها، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، 1995.
30. الزبيدي، مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
31. مسلم، النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
32. مصطفى، محمد، قوانين التسخير: سخر إلى حياتك كل ما تريد، الوطن للنشر، الطبعة الأولى، 2020.
33. مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة الأولى - 1423 هـ.
34. ملكاوي، فتحي، مقالات في إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى، 2018.
35. ملكاوي، فتحي، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى، 1432هـ/2011م.
36. المنجرة، المهدي، قيمة القيم، الطبعة الثانية، مارس 2007، د.ط.

37. النجار، عبد المجيد، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل: بحث في جدلية النص والعقل والواقع، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثالثة، 2005.

Gaston Bachelard ; L'INTUITION DE L'INSTANT ; Etude sur la siloé de M.GASTON ROUPNEL ;(1932). Un document produit en version numérique par Hélène Garcia-Solek, bénévole, Hélène Garcia : lou.solek@gmail.com.

1. إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، العدد: 80.
2. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد التاسع، العدد 1/أ، 1434هـ/2013م.
3. فصلية قضايا ونظرات: العدد: 2.

أَكَادِيمِيَّةُ اَلدِّرَاسَاتِ اَلْفِكْرِيَّة وَاَلتَّرْبَوِيَّة

contact@iesacademy.org

+212629-150200